اللورد روبرت بادن باول

الكشاف الأعظم العالمي

للأديب خميس زهران

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

انطلق بادن باول ومعه زميله إدوارد سيسل لتنفيذ التدابير التي ارتآياها . فوضع كل المتدربين في خط القتال وأخذ يجمع الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ ، ١٦ سنة وألف منهم فرقة ألبسها الزي العسكري وعهد إليهم ببعض الأعمال مثل نقل البريد والمؤونة والأشارات وحراسة المخازن وغير ذلك من الأعمال التي تحتاج إلى نشاط أكثر من احتياجها إلى تمرين « لقد كانوا فتياناً لا يسددون الرماية ، ولكنهم كانوا يركضون حولنا كالأرانب » . وشرع هو ورجاله في حفر الخنادق حول المدينة لتكون بمأمن من الأعداء

« كان لكل رجل قيمة وبما أن عددهم أخذ في النقصان شيئاً فشيئاً بسبب سقوط القتلى والجرحى ، أصبحت واجبات القتال والمراقبة ليلاً أصعب على الباقين . ثم إن اللورد إدوارد سيسل رئيس أركان الحرب جمع الأولاد في المكان وجعل منهم فرقة تلامذة حربيين وألبسهم وشرع في تدريبهم وأصبحوا بعد حين جماعة لبقين منظمين ، وكنا حتى ذلك الحين نستعين بعدد وافر من الرجال لحمل الأوامر والرسائل والمراقبة وأمثال ذلك . فأضحت هذه الواجبات الآن على التلامذة الحربيين وذهب الرجال لتدعيم خط النار

ولقد أدى هؤلاء الأولاد تحت رئاسة « جودير » أعظم خدمة واستحقوا الأوسمة التي نالوها عند نهاية الحرب . كان معظم هؤلاء يحسن ركوب الدراجة ، لذلك تمكنا من تأسيس بريد ، استطاع الناس بواسطته إرسال الخطابات إلى رفاقهم الموجودين في مختلف القلاع أو حول المدينة دون أن يعرضوا أنفسهم لخط النار . وجعلنا لهذه الرسائل طوابع بريد رسم عليها صورة تلميذ حربي يركب دراجة

قلت لأحد الأولاد مرة عند ما جاء تحت وابل من النيران : ستصاب يوماً وأنت تركب على هذه الصورة والشرر يتطاير من كل صوب . فأجاب : سيدي إنني أنطلق سريعاً بالدراجة ولن يستطيعوا الوصول إليّ .

المسجد وقد رأينا عرابياً وهم بنا صاحبي أن نعود .

ونحن وقوف على هذه الحال إلى حائط البيت انتهت إلى الباب عربة عرابي ونزل منها أمامنا يتمهّل ووقع بصره علينا ، وبعد دقيقة أو دقيقتين وقد هممت بالتقدم للسلام عليه ناداني : ألست أنت « عربي » الشيخ على نجم ؟

وسألني وصاحبي فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا خدمه وابنه ؛ وكنا دخلنا معه وقربنا إلى حيث يجلس يستقبل ؛ فلما سمع منا تغير لونه ووقف ووقفنا ؛ ثم رجع إلى أول الحديقة ونادى ابنه الذي استقبلنا وطلب معه من في البيت من اخوته ثم وقف وهم جميعاً أمامه ، فحدثهم باللغة التركية حديثاً طويلاً كان فيه ظاهر الغضب . وقد وقفوا جميعاً أمامه صفاً واحداً رؤوسهم على صدورهم مشتبكة أيديهم كأنهم في صلاة ؛ ثم قال ختام كلامه باللغة العربية ، وقد فهمنا منه غضبته وما حدث أبناءه — وخدمه واقفون — باللغة التركية ؛ وكان ختام عرابي باشا حديث أبنائه كأني أسمعه الآن يقول مشيراً إليّ وإلى صاحبي :

هذا زميلي في الكتّاب ، وهذا عربي جلست إليه يسمع مني القرآن فهو معلمي ؛ وأنا فلاح ابن فلاح تحدرت من أصلابهم وأنا بهم فخور ، فخور بأني نشأت ولعبت في الماء والطين معهم ؛ وأنا عرابي باشا ، ولكني فلاح ومن قرية « هرية » ، وهؤلاء الفلاحون هم أهلي وعشيرتي ومنهم دمي ، فمن جاء منهم إلى لا يجلس بالباب .

ثم أمر أولاده فانصرفوا وهم سكوت ؛ ودخلنا فجلس معنا ساعات يحدثنا عن صبانا وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الكتاب . وأراد أن يستبقينا ليلتنا فشكرنا واعتذرنا . ولم يتركنا عرابي باشا حتى خرج معنا خطوات من حجرته واستحلفنا أن نعود إليه وأن يرانا

قال محدثي الشيخ المعمر : ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه . ولكننا نحبه كما كان يحبنا

قلت يرحمك الله أيها الشيخ كما يرحم الله عرابياً البطل الفلاح

محمود الشرقاوي

يظهر أن هؤلاء الأولاد لم يفكروا فى القذائف قط : كانوا دائماً على استعداد لتنفيذ الأوامر مع أن الخطر كان منهم على قاب قوسين أو أدنى . وهكذا صارت المدينة فى حركة ونشاط متواصلين وقد سرت فى نفوس الجميع روح الثقة والأمل

فإن نعجب فلنعجب لهذا الساحر كيف أوتى هذه الجاذبية المدهشة التى سرعان ما أحالت الحامية خلقاً جديداً وأشاعت فى جنودها النشاط والرغبة فى العمل

وحدث فى تلك الأثناء حادث طريف يدل على ذكائه الفطرى فقد نصب أعلاماً سوداء حول المراعى الخضراء موهماً العدو أنها ملأى بالمفرقعات والألغام لكى يتقى شر الإغارة عليها ولتبقى سليمة ترعى فيها إبله وماشيته وهما قوام حياة جيشه المحاصر . فلما رأى جنود العدو هذه الأعلام ساروا فى طريقهم ولم يصوبوا أفواه بنادقهم ولا قذائفهم صوب هـذه المراعى خشية انفجار المفرقعات المهلكة والتى ظنوها شراكا منصوباً لهم . ومما ساعد على نجاح خدعته هـذه أن حدث أن الأعداء أطلقوا أعيرتهم النارية على إحدى عربات السكك الحديدية ظانين أن بها بعض رجال الحامية الإنجليزية ولم يكن بها إلا مفرقعات حقيقية فالبثت أن تطايرت الشظايا والمفرقعات فأصابت الثلاث منهم . وهكذا سنحت الفرصة لرجال الحامية الذين هجموا على الأعداء فأدخلوا الذعر فى قلوبهم وجعلوهم يلوذون بالفرار

تلك واقعة واحدة سـقناها للتدليل على شجاعة بادن باول فى تلك الحرب التى استمر لظاها مدة ٢٨٠ يوماً وانتهت بأن طلب قائد الجيش البويرى الصلح حقناً للدماء معترفاً بما أبدته تلك الحامية الضئيلة العدد من البسالة الفائقة والمقدرة النادرة

ولنترك الآن روبرت نفسه يصف الحالة أثناء الحصار بتلك الجمل التى خاطب بها رجال حاميته مفكنج بعد أن فك الحصار عنها وموده لهم « لقد كان مثلنا إبان ذلك الحصار كمثل أسرة سعيدة واحدة ، والآن جاء وقت الفراق . إنى أذكر أنى قلت لكم يوم أن حوصرنا وتقطعت بنا الأسباب : اربضوا ربضة الأسود . صوبوا إلى المرمى بنادقكم . ولقد قمتم بذلك خير قيام فكانت النتيجة ما ترون . ولقد أثنوا على شخصى الضعيف ، ولهجت الألسن بذكرى والثناء علىّ الثناء كله وفاتهم أنه من السهل أن يكون المرء ربان سفينة ونسوا الحامية التى هى شراع السفينة مفكنج التى أخرجتها من العواصف القاصفة والزعازع المتلفة وأوصلتها إلى الميناء بسلام »

كل هذا حدث بفضل بادن باول الذى كان الناس يشكون فى نجاحه فى هذا الحصار ولكنه بجده ونشاطه ومثابرته على العمل وإيمانه بقدرته على النصر تمكن من التغلب على الصعاب التى اعترضته وفاز بنصر مبين رفعه إلى أوج المجد والشهرة

حياة بادن باول الملأى بالمجازفات والأخطار وما شاهده من بطولة الصغار فى ظروف عدة وما فيهم من قوى كامنة تدفعهم لاختراق النيران بنية القيام بالواجب ، وجعل الجنود بمعرفة الاتجاهات واستعمال الفؤوس فى الغابات ، وجعلهم أيضاً إيقاد نار فى يوم اشتدت فيه الرياح أو هطلت فيه الأمطار : كل هذه أوحت إليه المبدأ الذى نسير عليه

فلما وضعت حرب البوير أوزارها آلى السير روبرت بادن باول على نفسه أن ينشر نظام الفتية الصغار بطريقة أوسع وأنظم فى بريطانيا العظمى إذا ما ألقى عصاه بها . ولما رجع إلى وطنه لم يأل جهداً فى تنفيذ فكرته فأقام معسكراً تدريبياً فى جزيرة صغيرة تسمى برونس ونجح نجاحاً جاوز الآمال فيه . شجع نجاح ذلك المعسكر السير روبرت بادن باول على المضى قدماً فجاهر بفكرته وأعلنها للملأ ؛ فتندد بها الاستعماريون لما فيها من إخاء عالى ولما تحويه من إزالة للفوارق الصناعية بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ وازدراها الاشتراكيون لأنهم توهموها عسكرية مقنعة ليس فيها لخير الإنسانية من شىء ، وسخر كثير من زيها ورأوا فيه خروجاً عن اللياقة وضرباً من التصابى ، فصمد لهم جميعاً وصابرهم إلى أن أصدر كتابه "Scouting for Boys" فى ربيع سنة ١٩٠٨ وقد وجه فيه الخطاب للفتيان أنفسهم فأقبلوا عليه إقبالاً عظيما والتهموا ما فيه التهاماً ، وانخرطوا فى سلك الحركة مؤمنين بمبادئها مصدقين بتعاليمها

وفى عام ١٩١٠ أسست الكشافة ليتعلم فيها مبتنقوها الصبر واحتمال المكاره والاستمساك بالعقيدة والاستهانة بكل شىء فى الحياة عداها ، ولقنهم البساطة والحياة الطبيعية لتطهر نفوسهم من الأطماع ولتتخلص من الدسائس والمواجيد فيجتمع لكل

أبنائها إرادة قوية وعزم من حديد ، فإذا اجتمع للانسان الإرادة وطهرت نفسه وقوى إيمانه بفكرته فمن ذا الذي يستطيع أن يقف في طريقه ؟

وعاش الكشافون عيشة التقشف : ألم يعش الخلفاء الراشدون عيشة الفقر وأملاك دولتهم تمتد وتتسع ، ورقعة امبراطوريتهم تعظم وتتراءى ؟ ألم يكن رداء عمر (مرقعة) ذهب أصلها وبقيت رقعها وجيوش المسلمين تهد امبراطورية الروم ؟ ألم يرسم محمد صلى الله عليه وسلم للقادة والزعماء وأصحاب الرسالات والمبادئ والعقائد دستوراً جليلاً حكيما حين قال : « طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة . اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً وأدخلني في زمرة المساكين » . اتخذ بادن باول لجماعته زيّاً خاصاً خاكي اللون رخيص الثمن بسيط المظهر ؛ وشجعهم على عقد الاجتماعات والقيام بالرحلات والمخيمات ، وعلمهم الاقتصاد في معيشتهم ، وعودهم إلى الأخوة في مآكلهم ومشربهم ، والمحبة في معاملاتهم والإخلاص في صداقتهم ، ومنعهم عن التدخين وشرب الخمور ، وحرم عليهم الفسق والفجور ، ليحفظ لهم صحة أجسادهم وقوة أبدانهم وسلامة عقولهم وبارز شخصياتهم ووافر كرامتهم . لم يكن وقت التمرين قاصراً على التربية البدنية ، بل تعداها إلى التربية الروحية ؛ فأقام المخيمات التدريبية لبث الروح العسكرية فيهم ، وألقى المحاضرات التاريخية ليزيدهم تعلقاً بكل ما هو قومي ، ومحبة لكل ما هو وطني ، وأذكى فيهم شعلة الحماس بالأغاني القومية والأناشيد الوطنية . ويعزى السبب في انتشار الكشافة إلى إيمان بادن باول وعقيدته في صحة ما يدعو إليه . ولا غرو ، فإن أصحاب المذاهب والمبادىء الاجتماعية الكبرى التي أثرت في تاريخ العالم وغيرت مجراه لم يتمكنوا من جذب النفوس إلى مبادئها إلا بعد أن تملوا بخمرتها ، وبذلك أمكنهم توليد تلك القوة العظيمة الأثر في النفوس ، ألا وهي الإيمان ، وهي التي تجعل المرء عبداً لمذاهبه .

وقد تزوج اللورد روبرت بادن باول في اكتوبر سنة ١٩١٣ بمس أوليف ورزق منها ولداً وابنتين ، وانتخب كشافاً أعظم للعالم في أول معسكر دولي أقيم في انجلترا سنة ١٩٢٠ ، ولقد أنعم عليه صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى جورج الخامس عام ١٩٣٠ بلقب لورد جزاء وفاقاً على قام ما به من عمل جليل .

وكرمته جامعة ليفربول ومنحته لقب دكتور في القانون (L. L. D.) ولقد جمع اللورد بادن باول خريجي معهد جلويل بارك Gilwell Park المخصص لتدريب معلمي الكشافة على فنونها المختلفة نظرياً وعملياً ، وهو قصر فخم وسط ضيعة كبيرة في مقاطعة اسكس بالقرب من لندن وسألهم أن ينتخبوا له اسمه الجديد الذي يضاف عادة بعد اللوردية فأجمعوا على جلويل فاغتبط به وأظهر ارتياحه

فبادن باول رجل خليق أن يعلم عنه شيئاً وأن يشغل حيزاً في ذاكرة كل فرد منا ومكانة في نفس كل واحد ؛ ولا غرو إذا تقدمنا لقراء الرسالة بسيرة هذا البطل إعجاباً بهذا الطراز الجديد من الرجال وهم الذين لم يشهدوا في عصرنا غير رجال مزيفين من الحواشي . رجال أو أشباه رجال ولا رجال ممن لم يحذقوا غير التخنث والأناقة ولم يبرعوا في غير الخبث والمكر ومضغ الكلام وترجيج الحواجب ! أو بالاختصار رجال من أولئك الذين تلقى بهم المصادفة في طريق العظماء وتأتي بهم الظروف إلى مجالس الأمراء وأهل الخطر والشأو البعيد . وما أوسع المسافة بين أمثال هؤلاء وبين هذا الرجل النبيل العزيز الجانب الذي تعبق منه روائح المسكر والخيام كما يعبق منه أريج الخدع والصالون ! رجل وأي رجل !

من كان يذور بخلده أن صبي فرنسا وصبي استراليا وصبي مصر وصبي أمريكا يتلاقون في مكان واحد : لا يفرقهم جنس ولا تنفرهم ديانة ولا تبعدهم لغة أو سياسة ؟ ومن كان يتوهم ولو على سبيل التفكهة أو المداعبة أن ابن مصر الشرقي الناطق بالضاد تأخذه العصبية الكشفية فينهض إلى منافسة ابن التامز النربي في اعتناق مذهب التربية الحديث

إنها آية الكشف وإنها معجزة بادن باول أن يألف الشباب حول المبادئ الكشفية ، وإن شئت فقل إنها مبادئ الشباب الحديث الذي يريد أن يرث الأرض جميعاً لا فرق عنده بين وطن وغربة

إن شئت فقل عنها إنها آداب المعاشرة وآداب المؤاكلة وآداب العائلة وآداب الإنسانية وآداب المجتمع الراقي وآداب الحياة الصحيحة الخالية من شوائب السعادة . فما أعذبها مبادئ لو أن السياسة تتركها وشأنها في الدنيا دون أن تمكر لها صفو أو تكدر لها مجتمعاً

إنما هي في الواقع توحيد لنظم التربية وعامل قوي لإزالة